



الدكتور محمد محمود كالو

بحث منشور في ملتقى أهل التفسير على الشبكة العنكبوتية

الثلاثاء 08:23 am

9 صفر 1425 هـ

30.03.2004

ملتقى أهل التفسير على الرابط التالي:

https://2u.pw/gKpHso


بسم الله الرحمن الرحيم

لطائف قرآنية

القرآن الكريم ظاهره أنيق وباطنه عميق، يحتوي بين دفتيه على كنوز ضخمة من الإشارات واللفتات، واللطائف والإيحاءات، والمعاني والحقائق والدلالات.

وتدبر آيات القرآن الكريم بلفتاته ولطائفه، نعمة عظيمة وغامرة لا يعرفها إلا من ذاقها، وكل ما يتعلق بالقرآن الكريم من تلاوة ودعوة، وحفظ وتدبر، وتفسير وتوجيه، ولطائف وإشارات، وبحوث ودراسات، كل ذلك عبادة لله تعالى.

والقرآن الكريم لا يشبع منه العلماء، ولا يَمَلُّه الأتقياء، ولا تنقضي عجائبه، ولا يتصف بهذه الصفات إلا كتاب الله تعالى.

وبالنسبة لتفسير القرآن الكريم فلا يمكن أن نقتصر على دراسات السابقين ـ ولا نستغني عن تفاسيرهم ـ ونحبهم ونقدر علمهم الأصيل، ومع ذلك نعتقد أن بعض المتأخرين، وقفوا على لطائف ودلالات قرآنية لم يلحظها السابقون، ومفهوم «ما ترك الأول للآخر» يجب أن يصحح إلى « كم ترك الأول للآخر».

بعض العلوم نضجت، ولا تقبل إضافة على قواعدها كالنحو والصرف، وأصول الفقه، وأصول الحديث، وبعض العلوم حية نامية، وتقبل كل إبداع وجديد، كعلم التفسير، وعلم الحديث، والبلاغة والأدب.

لا بدَّ من علماء يفسرون القرآن بلغة وأسلوب عصرهم، وفائدتنا لمن ينقض لنا ـ من خلال تفسيره ـ مذاهب فكرية معاصرة كالماركسية والماسونية والوجودية، أكبر بكثير من نقض الإمام الرازي مثلاً في تفسيره لأفكار المعتزلة.

إن لكل مفسِّرٍ أهدافه، ومنهجه وأسلوبه، بما يتفق مع قضايا ومشكلات عصره، ضمن ضوابط التفسير وقواعده، فباب التفسير باب لا يُغلَق! والتفسير فتوحات وفيوضات ربانية.

وسأذكر في هذا البحث بعض الأمثلة والشواهد، من اللطائف التي وقفت عند قراءتي لها، ورأيتها مفيدة جداً، ويجب أن يطَّلع عليها كل الناس، ومن الله تعالى أسأل الأجر والمثوبة.

1ـ الحروف النورانية: الحروف المقطعة أوائل السور، للتحدي والإعجاز، وللإشارة إلى مصدر القرآن الكريم، وأنه كلام الله تعالى، حيث وضع بين أيدي الكافرين المادة الأولية، لصياغة وتركيب الكلام

العربي، وهي حروف الهجاء، وكأنه يقول لهم: الحروف التي افتتحت بها السور نصف أسامي حروف المعجم (أربعة عشر حرفاً)، فمن زعم أن القرآن ليس بآية، فليأخذ الشطر الباقي، ويركب عليه لفظاً معارضة للقرآن.

والذي يرجح هذا الفهم للحروف النورانية ما يلي:

ـ عدد الحروف المقطعة بدون تكرار أربعة عشر حرفاً، وهو نصف عدد حروف الهجاء العربية عند من قال: إن حروف المعجم ثمانية وعشرون حرفاً، فسبحان الذي دقت في كل شيء حكمته.

ـ يجمع هذه الحروف النورانية جملة لطيفة ذات دلالة، وهي قولك: «نص حكيم قاطع له سر»، ولهذا قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: «فِي كُلِّ كِتَابٍ سِرٌّ، وَسِرُّ اللهِ فِي الْقُرْآنِ أَوَائِلُ السُّوَرِ».

ـ عدد السور المفتتحة بهذه الأحرف تسع وعشرون سورة، على عدد حروف الهجاء العربية، والصحيح أنها تسعة وعشرون حرفاً، وذلك لأن الواضع جعل كل حرف من حروف المعجم صدر اسمه إلا الألف، فإنه لما لم يمكن أن يبتدأ به لكونه مطبوعاً على السكون فلا يقبل الحركة أصلاً، تُوصِّل إليه باللام، لأنها شابهته في الاعتداد والانتصاب، ولذلك يكتب على صورة الألف إلا إذا اتصل بما بعده[1].

ـ والسور المفتتحة بالأحرف المقطعة مرتبة ترتيباً ملحوظاً مقصوداً:

أ ـ **السور المفتتحة بأحرف «ألم»** مرتبة ومسلسلة في المصحف في مجموعتين:

المجموعة الأولى: سورتا البقرة وآل عمران.

المجموعة الثانية: أربع سور متوالية: العنكبوت، الروم، لقمان، السجدة.

ب ـ **السور المفتتحة بأحرف «ألر»** ست سور متوالية في المصحف وهي: يونس، هود، يوسف، الرعد، إبراهيم، الحجر.

ج ـ **مجموعة «الطواسين»** وهي السور المفتتحة بأحرف «طس» أو «طسم» ثلاث سور متوالية أيضاً وهي: الشعراء، النمل، القصص.

1- انظر البرهان في علوم القرآن، للزركشي، تعليق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الفكر، بيروت، 1408هـ 1988م، الطبعة الأولى:1/ 226.

د ـ **مجموعة «الحواميم»** وهي السور المفتتحة بحرفَيْ «حم» سبع سور متوالية في المصحف وهي: غافر، فصلت، الشورى، الزخرف، الدخان، الجاثية، الأحقاف.

ومن دقة القرآن الكريم تلك الخماسيات التي تشمل الفئات السبع التالية في افتتاحيات السور:

الفئة الأولى: خمس سور مفتتحة بالتحميد: الفاتحة، الأنعام، الكهف، سبأ، فاطر، وكلها مكية.

الفئة الثانية: خمس سور مفتتحة بالتسبيح: الحديد، الحشر، الصف، الجمعة، التغابن، وكلها مدنية.

الفئة الثالثة: خمس سور مفتتحة بألف لام راء: يونس، هود، يوسف، إبراهيم، الحجر، وكلها مكية.

الفئة الرابعة: خمس سور مفتتحة بالنداء: النساء، المائدة، الحج، الحجرات، الممتحنة، وكلها مدنية.

الفئة الخامسة: خمس سور مفتتحة بنداء الرسول: الأحزاب، الطلاق، التحريم، المزمل، المدثر، وكلها مكية.

الفئة السادسة: خمس سور مفتتحة بالاستفهام: الدهر، الغاشية، الشرح، الفيل، الماعون، وكلها مكية.

الفئة السابعة: خمس سور مفتتحة بالأمر: الجن، الكافرون، الإخلاص، الفلق، الناس، وكلها مكية[2].

2ـ **ترتيب السور المفتتحة بالتسبيح:** السور القرآنية المفتتحة بالتسبيح ست وهي: الإسراء، والحديد، الحشر، الصف، الجمعة، التغابن، الأعلى.

وبالتأمل فيها نجدها مرتبة ترتيب اشتقاقات لا ترتيب تسلسل، لأن بينها سوراً أخرى.

الأصل في اشتقاقات أي كلمة مشتقة من المصدر، ثم الفعل الماضي، ثم الفعل المضارع، ثم فعل الأمر.. وهكذا: سبحان، سبَّحَ، يسبح، سبّحْ، وحينما نمعن النظر في السور المفتتحة بالتسبيح فسنجدها مرتبة على هذا الأساس.

سورة الإسراء افتتحت بالمصدر: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ [الإسراء:1]، لأن المصدر هو الأساس في الاستعمال.

وسورة الحديد والحشر والصف افتتحت بالفعل الماضي: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾ [الحديد والحشر والصف:1].

2- مجلة كلية الدعوة الإسلامية الليبية، العدد الثامن 1991م، «الإعجاز في الأسلوب القرآني» فرج علي حسين: 343، ومجلة العلم والإيمان التونسية العدد 61 يناير 1991م: 81.

وسورتا الجمعة والتغابن افتتحتا بالفعل المضارع: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [الجمعة والتغابن:1].

وسورة الأعلى افتتحت بفعل الأمر: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [الأعلى:1].

3-هاء الرفعة وهاء الخفض:

ـ **هاء الرفعة:** هي الهاء المضمومة في كلمة (عَلَيْهُ) في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح:10].

الأصل أن تكون الهاء في « عَلَيْهِ» مكسورة، ولكن جاءت هنا مضمومة، والضم علامة الرفع، والمقام مقام رفعة، فكأن الرفعة أصابت الهاء في «عَلَيْهُ» فكان من غير المناسب أن تبقى مكسورة، لأن الكسرة لا تناسب هذا الجو، لذلك تحولت الكسرة إلى الضمة علامة الرفع، انعكس الجو على حركة الهاء، والآية أيضاً تتحدث عن الوفاء بالعهد والبيعة، ولما كان الوفاء بالبيعة دليل على صدق المبايع، وعلوِّ همته، ورفعة نفسه، وسمو خلقه، لذا جاءت الهاء مضمومة[3]، وكأن علامة الرفع جاءت من قوله تعالى: ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾.

ـ **هاء الخفض:** وهناك هاء أخرى في القرآن الكريم، تقابل هاء الرفعة، وهي هاء الخفض، وهي الهاء التي دخل عليها حرف الجر «في» في قوله: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا. يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا﴾ [الفرقان: 68-60].

فقد نص علماء القراءات والتجويد على إشباع كسرة الهاء في قوله تعالى: ﴿وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا﴾ فتقرأ هكذا: (وَيَخْلُدْ فِيهِي مُهَانًا) بالإشباع مع أن الهاء في مثيلاتها يكتفى بكسرتها، فلماذا مدت الهاء هنا أكثر من حركتين، إن وراء الهاء سراً دفيناً وعجيباً، وهو أن الذي دعا إلى هذا هو السياق الذي وردت فيه، فقد سبقها ذكر مجموعة من المعاصي والفواحش التي لا يفعلها عباد الرحمن، ثم ذكرت الآيات ما يترتب على

3- لطائف قرآنية، د. صلاح عبد الفتاح الخالدي، الطبعة الثانية، دار القلم 1419 هـ 1998 م: 47.

هذه الكبائر من عقوبة، وهي العذاب المضاعف مهاناً ذليلاً خاسئاً، ولما نقرأ الآية ونصل إلى قوله: ﴿وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا﴾ يصور الله تعالى لنا المشهد المهيب وكأننا نلحظ بأبصارنا إلقاء صاحب تلك المعاصي وهو يهوي في قاع جهنم، وحينما نمدُّ الهاء في «فِيهِ» أكثر من حركتين، كأن نفس القارئ ينزل إلى أسفل نحو رئتيه، وبذلك يساعد على الإنزال والخفض، وكأننا بهذا المد الخاص هنا فقط نساعد على إنزال المجرم في هوة جهنم، ومسارعة سقوطه فيها.

4-ألف العزة وياء الذلة:

ـ **ألف العزة:** هي الألف في كلمة (عِبَادُ) التي وردت في القرآن الكريم حوالي مائة مرة، في معظمها وصف بها المسلمون المطيعون لله تعالى، لذلك لا نخطئ إذا قلنا: إن غالب كلمة (عِبَادُ) في القرآن يراد بها المسلمون المطيعون لله تعالى.

كما قال تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا﴾ [الفرقان: 63].

نمعن النظر في الألف الممدودة في وسط كلمة (عِبَادُ) نجدها توحي بالعزة والمنعة والرفعة والسمو، وكأنها مرفوعة الرأس بطاعة الله تعالى، منصوبة القامة باستمرار، وهذه العزة والرفعة والسمو نلحظها في حياة عباد الرحمن المطيعين لله تعالى، وفي أخلاقهم ومعاملاتهم، يعيشون بعزة قوله تعالى: ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: 54].

وقد قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «نحن قوم أعزنا الله بالإسلام، ومهما ابتغينا العزة بغيره أذلنا الله»، وقال بجير بن زهير بن أبي سلمى في يوم حنين[4]:

والله أكـرمــنا وأظهر ديننا   و أعزنا بعـبادة الرحمن
والله أهلكهم وفرق جمعهم   وأذلهم بعبادة الشيطان

وما أجمل قول القائل:

ومـمـا زادنــي شـرفاً وتـيـهـاً   وكـدتُّ بأخمصي أطأ الثريا

4- انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام، دار الجيل، بيروت، 1411هـ.

دخولي تحت قولك يا عبادي		وأن صَيَّرْتَ أحمد لي نبياً

- **ياء الذلة:** إذا كانت ألف «العباد» ألف عزة، فإن ياء «العبيد» هي ياء الذلة! وإذا كان غالب استعمال «عباد» في القرآن للمؤمنين، فإن كلمة «عبيد» في القرآن وردت وصفاً للكفار والعصاة، ووردت كلمة «عبيد» خمس مرات في القرآن الكريم فقال الله تعالى عن كفر اليهود: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ اللّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاء سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ الأَنبِيَاء بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ الْحَرِيقِ. ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللّهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [آل عمران: 181-182].

ونمعن النظر في المواضع الخمس نجد أن الله تعالى ذكر في ثلاث مواطن: ﴿وَأَنَّ اللّهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [آل عمران: 182]، و [الأنفال: 51]، و[الحج: 10].

وهي تتحدث عن اليهود والكفار في الدنيا وأن الله ليس بظلام لهم يوم القيامة.

بينما ذكر في «سورة فصلت» بقوله: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[فصلت: 46]، فكلمة (رَبُّكَ) فيه خطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم، والآية تتحدث عن عدل الله تعالى في منح الثواب للمحسن، وإيقاع العذاب بالكافر.

وذكر في «سورة ق» قوله: ﴿وَمَا أَنَا بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[ق: 29]، بضمير المتكلم لأن الآية تتحدث عن موقف بين يدي الله تعالى مباشرة يوم القيامة.

وكلمة (ظلاَّم) المبالغة في (ظلاَّم) باعتبار الكمية لا الكيفية، وقيل: (ظلاَّم) للنسب كعطَّار أي: لا ينسب إليه الظلم أصلاً، وليس ربك بذي ظلم، وقيل: ذكر الظلاَّم بلفظ المبالغة لاقترانه بلفظ الجمع وهو «العبيد»، فذلك لرعاية جمعية العبيد، من قولهم: ظالم لعبده، وظلاَّم لعبيده[5]، وفيه تنبيه إلى أنه لا يظلم من يختص بعبادته، ولا من انتسب إلى غيره من الذين تسموا بعبد الشمس وعبد العزى ونحو ذلك[6].

عود على بدء، ننظر في الآيات التي ذكرت ياء الذلة في «العبيد» فنجد أن التعبير عن الكفار بالعبيد يوحي بالذلة والصَّغَار، لأن الياء جاءت وسط الكلمة منبطحة ملقاة بذلة، فالكفار أذلاء جبناء ضعفاء

5- انظر: «تفسير النسفي - مدارك التنزيل وحقائق التأويل» لأبي البركات عبد الله النسفي: 3 / 97 ، و«روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني» لمحمود الألوسي، دار إحياء التراث العربي، بيروت: 215/14 ، و«فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير» للشوكاني، دار الفكر، بيروت: 5 / 77.

6- انظر: المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني، تحقيق: محمد خليل عيتاني، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الأولى، 1418 هـ 1998م: 323

مهانون، في حياتهم وأشخاصهم ومواقفهم، لا يريدون العزة والرفعة، ولا يشعرون بالكرامة والأنفة، تجدهم أحرص الناس على حياة، وتراهم يذلون أمام المتسلطين الظالمين، لذلك لازمتهم ياء الذلة[7].

5- ميِّت.. و.. ميْت: كلمتان متقاربتان، الأولى بالتشديد والثانية بالتسكين، فما هو السر الدفين في هذا التفاوت في التعبير؟ وما الفرق بين الكلمتين؟

أولاً لا ترادف في كلمات القرآن الكريم، أي لا توجد كلمتان في القرآن بمعنى واحد، بل لا بدَّ من فروق دقيقة بينهما.

وربما عدل القرآن عن صورة إلى أخرى تختلف عن الأولى في عدد الحروف أو الترتيب أو الحركات، وهذا التغيير يكون مقصوداً، لذلك لا بدَّ من حكم ولطائف من هذا التعبير والتغيير.

الميِّت -بالتشديد-: هو غالباً ما يعبَّر به عن الحي الذي فيه الروح.

الميْت - بالتسكين - : هو الذي خرجت روحه منه.

فالميِّت: مخلوق حي، ما زال يعيش حياته، وينتظر أجله، فهو ميِّت مع وقف التنفيذ، ونرى هذا المعنى واضحاً في قوله تعالى وهو يخاطب رسوله الكريم: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ. ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [الزمر: 30]، الآية الكريمة تخاطب النبي صلى الله عليه وسلم وتخبره بأنه سيموت، وأن خصومه الكفار سيموتون، فكل حي «ميِّت» حال حياته ينتظر حلول الأجل.

والميْت: هو المخلوق الذي مات فعلاً وخرجت روحه وأصبح جثة هامدة، وأطلق القرآن هذا اللفظ على :البلد الميْت، فقال الله تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ [يس:33].

والبهيمة الميْتة ، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ﴾ [المائدة:3].

والميْت: هو الإنسان الذي مات وخرجت روحه، وقد شبه الله تعالى الذي يغتاب أخاه بمن يأكل لحم ذلك الإنسان الميت، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلا

7- انظر: لطائف قرآنية، د. صلاح عبد الفتاح الخالدي، الطبعة الثانية، دار القلم، 1419 هـ 1998م: 60.

تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات:12].

والكافر: قلبه ميْت، فهو ميْت موتاً معنوياً، رغم أنه يتحرك ويتنفس، ميْت لخلو قلبه من الإيمان، وحياته من الاستقامة، ولا يحيي قلبه إلا الإيمان: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام:122].

ولعلنا نستشف هذه المعاني من حركات الكلمتين، فالميِّت: ياؤه مشددة، ويشير إلى إقبال الإنسان الحي على حياته الدنيا، وانهماكه فيها، وحرصه عليها بكل ما أوتي من قوة وشدّة.

أما الميْت: فالذي خرجت روحه، فياؤه ساكنة غير متحركة، ولعلها إشارة إلى سكون هذا الإنسان وهدوئه بعد خروج روحه، وتوقفه عن الحركة، وقد قال الشاعر مفرّقاً بينهما:

وَتَسْأَلُني تَفْسيرَ مَيْتٍ وَمَيِّتِ ... فَدونَكَ ذا التفسيرُ إنْ كنتَ تَعْقِلُ
فَمَنْ كانَ ذا روحٍ فَذلِكَ مَيِّتٌ ... وَما المَيْتُ إلاَّ مَنْ إلى القَبْرِ يُحْمَلُ

6ـ الكُره.. و..الكَره: كلمتان متقاربتان في البناء والتركيب والحركات، ومتقاربتان أيضاً في المعنى.

فالكُره: المشقة المرغوبة، كتكليف القتال الشاق على النفس، ولكن النفس المؤمنة ترغبه وتطلبه رغم مشقته وصعوبته، لذلك وصف بأنه (كُرْهٌ) بضم الكاف، أي ثقيل وشاق، ولكنه مرغوب ومطلوب مراد للمجاهدين الصادقين، وذلك لثماره الإيجابية في الدنيا والآخرة.

قال الله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:216].

ولما كان حمل المرأة شاق صعب متعب ومرهق، يضعف جسمها، ويؤثر في أعصابها ونفسيَّتِها، وقد يصيبها بالأمراض أو تودي بحياتها، علاوة على ذلك آلام المخاض، وأوجاع الطلق، ومشقة الولادة، ولكن رغم كل هذا فالمرأة ترغب في الحمل والإنجاب، وتستعذب هذه المشاق، وتطلب الحمل وتريده!

ولهذا عبَّر القرآن الكريم عن حملها ووضعها بأنه «كُره» أي: مشقة وصعوبة وثقل، فيه آلام وأوجاع وأخطار، لكنه مرغوب ومطلوب لدى المرأة، مقرونة باللذة والشوق، قال الله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف:15].

فسبحان من جعل الحمل والإنجاب حاجة فطرية، في كل امرأة سليمة سوية، لتستمرَّ الحياة!

والكَره: وردت هذه الكلمة في القرآن الكريم خمس مرات، بمعنى: الإكراه والإجبار والقسر، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ اِئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِين﴾ [فصلت:11].

وقال سبحانه: ﴿وَلِلّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ﴾ [الرعد:15].

فالكافر أسلم لله تعالى رغم أنفه، وهو كاره رافض، لذلك اعتبر استسلامه «كَرْهاً» بفتح الكاف، ويسجد لله مكرهاً مجبراً، وليس هكذا استسلام المؤمن لله تعالى، ولهذا وصفه القرآن الكريم بأنه «طَوْعًا» وجعله مقابلاً ومضاداً لاستسلام الكافر وخضوعه الجبري لله تعالى.

حتى إنفاق المنافقين لأموالهم رغم أنوفهم، إنفاق بسبب القسر والإكراه، وذلك لأنهم يريدون به التمويه على المسلمين، ولهذا وصف الله إنفاقهم بأنه «كَره» وأمرنا أن نقول لهم: ﴿قُلْ أَنفِقُواْ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾[التوبة :53].

ونهى القرآن الكريم عن وراثة المرأة كالمتاع والأثاث فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ النِّسَاء كَرْهًا﴾ [النساء: 19].

فقد كان الجاهلي إذا مات أبوه، ورث أمواله ومتاعه، ومن جملة ما يرث زوجة أبيه، فنهى الله تعالى عن هذا التصرف الجاهلي البشع وحرَّمه عليهم، والمرأة ترفض هذا التصرف وتكرهه، لأنه إجبار وقسر لها، ولذا سماه الله تعالى في القرآن الكريم «كَرهاً» بفتح الكاف .

وقال الراغب الأصفهاني: الكَرْه: المشقة التي تنال الإنسان من خارج، فيما يُحمَلُ عليه بإكراه، والكُرْهُ: ما يناله من ذاته، وهو يعافه[8].

7-**الجسم.. و.. الجسد:** كلمتان متقاربتان في الحروف والمعنى، ولكن ما الفرق بينهما، يقال: الجسم: إذا كان فيه حياة وروح وحركة، والجسد: التمثال الجامد أو البدن بعد وفاته وخروج روحه.

قال الله تعالى عن «طالوت» مبيناً مؤهلاته ليكون ملكاً على بني إسرائيل: ﴿قَالَ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾ [البقرة:247].

وقال تعالى عن اهتمام المنافقين بأجسامهم على حساب قلوبهم: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾ [المنافقون:4].

الآيتان تتحدثان عن الأحياء، فطالوت ملك حي، والمنافقون أحياء يتكلمون.

أما كلمة «جسد» فإنها تعني: البدن جثة هامدة، قال الله تعالى عن ابن نبي الله سليمان عليه الصلاة والسلام، الذي ولد ميتاً مشوهاً: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾ [ص:34].

كما وصف القرآن العجل «التمثال» الذي صنعه «السامري» من الذهب لبني إسرائيل، ودعاهم إلى عبادته، مستغلاً غيبة موسعليه السلام ، فقال الله تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ﴾ [الأعراف:148].

وبهذا نكون قد علمنا الفرق بين الجسم والجسد.

8-همت به وهمَّ بها: أثبت القرآن الكريم لامرأة العزيز مراودتها ليوسف ـ عليه الصلاة والسلام ـ قال الله تعالى: ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ. وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاء إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: 23 -24].

ولكن هل همَّ يوسف بها كما همَّت به، بعض المفسرين نسب الهمَّ ليوسف عليه السلام بامرأة العزيز، وذهب إلى أن همّه كان هم الفاحشة، ومعلوم أن الأنبياء معصومون عن الخطأ.

8- انظر المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني، تحقيق: محمد خليل عيتاني، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الأولى، 1418 هـ 1998م: 429.

ومنهم من نفى عن يوسف همَّ الفاحشة، واعتبره همَّ الضرب، أي همَّ بضربها ورفع يده عليها، ولكنه لم يضربها لأنه رأى برهان ربه، وهو شعوره بالخجل من ضربها، لأنه لا يليق برجل أن يضرب امرأة، فكيف إذا كانت سيدته!

ولا أرى الهمَّ بالفاحشة لأنه منزه عن ذلك، ولا همَّ بالضرب لعدم توفر الأدلة على ذلك، ولكن تركيب الآية توحي بأنه لم يهمَّ بها، وتنفي عنه الهمَّ، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ. وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ فحرف «الواو» هنا استئنافية وليست عاطفة، ويجب الوقوف على الضمير في «يهِ»، ثم يستأنف القارئ: ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾، وجملة «هَمَّ بِهَا»، جواب الشرط، لحرف الشرط «لَوْلا»، مقدَّم عليها، فتصبح الجملة هكذا: « لَوْلا أن رأى برهان ربه لَهَمَّ بها».

ومعلوم أن (لَوْلا) حرف امتناع لوجود، فيمتنع تحقق جواب الشرط وهو «هَمَّ بِهَا» لوجود فعل الشرط وهو «أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ».

وبرهان ربهعز وجل هو: إيمانه القوي بالله تعالى، وشعوره بمراقبته، وحرصه على عدم مخالفته، واجتنابه للمعاصي والذنوب.

9-معجزات عددية في سورة القدر: تتحدث سورة القدر عن فضل ليلة القدر، وتخبر أن إنزال القرآن كان في ليلة القدر، وتبيِّن أنها خير من ألف شهر، وحثنا النبي صلى الله عليه وسلم على إحياء تلك الليلة، فقال عليه الصلاة والسلام: (مَن يَقُمْ لَيْلَةَ القَدْرِ، إيمَانًا واحْتِسَابًا، غُفِرَ له ما تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِهِ)[9].

سورة القدر هذه تحتوي على إشارات عظيمة وعميقة منها:

ـ كلمة «القدر» مؤلفة من خمسة أحرف، وكأنها تشير إلى أركان الإسلام الخمسة.

ـ تحتوي هذه السورة على خمس آيات، وكأنها تحث الأمة على المحافظة على الصلوات الخمس جماعة في بيت من بيوت الله تعالى.

9- رواه البخاري، في كتاب الإيمان، باب قيام ليلة القدر من الإيمان، برقم: 34، ومسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الترغيب في قيام رمضان وهو التراويح، برقم: 1268، والترمذي في كتاب الصوم عن رسول الله، باب ما جاء في فضل شهر رمضان، برقم: 619 ، والنسائي في كتاب الصيام، باب ثواب من قام رمضان وصامه إيماناً واحتساباً، برقم: 2164، وأبو داود في كتاب الصلاة، باب في قيام شهر رمضان، برقم: 1165، وأحمد في باقي مسند المكثرين، برقم: 6873، والدارمي في كتاب الصوم، باب في قيام رمضان، برقم: 1711 .

حافظ على صلواتك الخمسِ فكم من مصبح وعساه لا يمسي
واستقبل يومك بذكر الإله تمحو به ما كان بالأمسِ

ـ كما أن هذه السورة تحتوي على ثلاثين كلمة، بعدد أيام شهر رمضان الكريم، وهي تحث الأمة على محافظة صيام هذا الشهر الكريم.

أتى رمضان مزرعة العباد لتطهير القلوب من الفساد
فأدِّ حقوقه قولاً وفعلاً وزادك فاتخذه للمعاد
فمن زرع الحبوب وما سقاها تأوَّهَ نادماً عند الحصاد

ـ وتحتوي هذه السورة على مائة وأربعة عشر حرفاً، بعدد سور القرآن الكريم، وكأنها تحث الأمة على تلاوة هذا الكتاب المجيد، الذي أنزل في هذا الشهر الكريم.

كلام قديم لا يمل سماعه تنزه عن قول وفعل ونية
به أشتفي من كل داء ونوره دليل لعقلي عند جهلي وحيرتي
فياربِّ متعني بسرِّ حروفه ونوِّر به سمعي وقلبي ومقلتي

ـ وفيها إشارة إلى أن ليلة القدر هي ليلة السابع والعشرين، وذلك لأن جملة «ليلة القدر» مكونة من تسعة أحرف، ومكررة ثلاث مرات، ولعل الحكمة من ورودها ثلاث مرات هي الإشارة إلى تعيين الليلة، فحاصل ضرب عدد الحروف بعدد المرات، نستنتج تعيين الليلة: 9 × 3 = 27 وهي ليلة القدر.

ـ وذكرنا أن عدد كلمات هذه السورة ثلاثون كلمة، على عدد أيام الشهر الكريم، ورقم كلمة «هي» الضمير المنفصل الذي يعود على ليلة القدر، هو السابع والعشرون في عدِّ الكلمات، وكأن الآية تنطق بأن ليلة القدر هي ليلة السابع والعشرين، والله تعالى أعلم.

10-فأردتُّ.. فأردنا.. فأراد ربك: في سورة الكهف ذكرت هذه الكلمات الثلاث قال الله تعالى في الآية الأولى عن السفينة: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً﴾ [الكهف: 79].

حيث أضاف عيب السفينة إلى نفسه رعاية للأدب، لأنها لفظة عيب فتأدب، بأن لم يسند الإرادة فيها إلا إلى نفسه، كما تأدب إبراهيم عليه السلام في قوله: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء:80]، فأسند الفعل قبل وبعد إلى الله عز وجل، وأسند إلى نفسه المرض، إذ هو معنى نقص ومصيبة، فلا يضاف إليه سبحانه من الألفاظ إلا ما يستحسن منها دون ما يستقبح، وهذا كما قال تعالى: ﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ﴾ [آل عمران:26]، فاقتصر عليه، ولم ينسب الشر إليه، وإن كان بيده الخير والشر، والنفع والضر، إذ هو على كل شيء قدير.

ولله تعالى أن يسند إلى نفسه ما يشاء، ويطلق علينا ما يريد، ولا نطلق نحن إلا ما أذن لنا فيه من الأوصاف الجميلة، والأفعال الشريفة، جل وتعالى عن النقائص والآفات علواً كبيراً.

الآية الثانية قال الله تعالى فيها عن الغلام: ﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا. فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ [الكهف:80 -81]، (فأردنا) وكأنه أضاف القتل إلى نفسه، والتبديل إلى الله عز وجل، والأشد كمال العقل والخلق، فأبدلهما الله تعالى ابنة، فتزوجها نبي، فولدت له اثنا عشر غلاماً كلهم أنبياء.

والآية الثالثة تتحدث عن الجدار قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: 82].

حيث أسند الإرادة في الجدار إلى الله عز وجل، لأنها في أمر مستأنف في زمن طويل، وغيب من الغيوب، فحسن إفراد هذا الموضع بذكر الله تعالى، وإن كان الخضر -عليه السلام- أراد ذلك، فالذي أعلمه هو الله سبحانه وتعالى أن يريده.

وقيل: لما كان ذلك خيراً كله أضافه إلى الله تعالى.

وقيل: أسند الإرادة إلى الله تعالى ههنا لأن بلوغهما الحلم لا يقدر عليه إلا الله تعالى: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا﴾،[10] والله أعلم.

11- خشية إملاق نحن نرزقهم.. من إملاق نحن نرزقكم: الفرق شاسع وواسع بين الكلمتين، لذلك نجد أن القرآن الكريم عبَّرَ مرة هكذا ومرة هكذا.

فقال الله تعالى: ﴿وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلاَدَكُم مِّنْ إمْلاَقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ [الأنعام:151].

وقال في آية أخرى: ﴿وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم﴾[الإسراء: 31].

ففي الآية الأولى قدم رزق المخاطبين وهم الآباء، على رزق أولادهم، لأن الفقر موجود بالفعل، وهو السبب المباشر لقتل الأولاد، وما دام الفقر موجوداً بالفعل، فالإنسان يكون مشغولاً برزق نفسه قبل أن يشغل برزق ولده، وهنا يطمئنه الله تعالى على رزقه فيقول: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ﴾ يا أصحاب الإملاق وإياهم، فنأتي برزقهم أيضاً.

أما الآية الثانية، فالفقر غير موجود بالفعل، وإنما هو متوقع، فهم يخافون إن جاء لهم أولاد أن يأتي الفقر معهم، فيقول تعالى: [نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ] نحضرهم ونحضر معهم رزقهم، ونرزقكم أنتم أيضاً[11].

12-السارق والسارقة.. الزانية والزاني: قدم السارق على السارقة؛ لأن السرقة وقوعها من الرجل أغلب؛ لأنه أجرأ عليها، وأجلد وأخطر، فقدم عليها لذلك.

قال الله تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُواْ أَيْدِيَهُمَا جَزَاء بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللهِ وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [المائدة:38].

10- انظر: الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، دار الشعب، القاهرة، 1372هـ الطبعة الثانية، تحقيق: أحمد عبد العليم البردوني: 11 / 39.
11- التحرير والتنوير، للشيخ الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر: 88/15، وإعجاز القرآن، للشيخ محمد متولي الشعراوي، دار الشروق: 125.

وقدم الزانية على الزاني؛ لأن الزنى من المرأة أقبح، وجرمه أشنع، لما يترتب عليه من تلطيخ فراش الرجل، وفساد الأنساب، وإلحاق العار بالعشيرة، ثم بعد كل هذا، الفضيحة بالنسبة للمرأة (بالحمل) تكون أظهر وأدوم، لذا قدمت على الرجل.

قال الله تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ وَلا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور:2].

قال القرطبي في تفسيره: قدمت الزانية في هذه الآية، من حيث كان في ذلك الزمان زنى النساء فاشٍ، وكان لإماء العرب وبغايا الوقت رايات، وكن مجاهرات بذلك، وقيل: لأن الزنى في النساء أَعَر[12]، وهو لأجل الحَبَلِ أَضَر، وقيل: لأن الشهوة في المرأة أكثر، وعليها أغلب، فصَدَّرَها تغليظاً لتُرْدِعَ شهوتَها، وإن كان قد ركب فيها حياء، ولكنها إذا زنت ذهب الحياء كله.

وأيضاً فإن العار بالنساء ألحق، إذ موضوعهن الحجب والصيانة، فقَدَّمَ ذكَرَهنَّ تغليظاً واهتماماً.[13]

فإن قلتَ: فلِمَ قدم الرجل في قوله تعالى: ﴿الزَّانِي لا يَنكِحُ إلاَّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لا يَنكِحُهَا إِلاَّ زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور:3]؟؟

قلتُ: لأن تلك الآية في الحد والزنى، وهي في المرأة أقوى، وهذه الآية في حكم النكاح، والرجل هو الأصل فيه، لأنه الراغب والمبادر في الطلب، بخلاف الزاني فإن الأمر فيه بالعكس غالباً[14].

13-القاسط.. و.. المقسط: كلمتان متقاربتان في الحروف، ولكن الفرق بينهما في المعنى واسع وشاسع، قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ [الجن:15].

فالقاسط: هو الجائر، والظالم الذي عدل عن القسط، وانحرف عن العدل.

12- أعر: أي أكثر إثماً وعاراً، قال في لسان العرب: والمَعَرَّةُ: الإثم، وفي التنزيل: [فتُصِيبَكم منهم مَعَرَّة بغير عِلْم] قال ثعلب: هو من الجرب، أَي يصيبكم منهم أَمر تَكْرَهُونه في الدِّيات، وقيل: المَعَرَّة الجنايةُ أَي جِنايَتُه كجناية العَرِّ وهو الجرب.
13- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، دار الشعب، القاهرة، 1372 هـ، تحقيق: أحمد عبد العليم البردوني: 160/12.
14- انظر: فتح الرحمن لما التبس من القرآن، للشيخ زكريا الأنصاري:

والمقسط: هو العادل، والله تعالى يحب المقسطين، ويبغض القاسطين، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات:9].

كلمة قاسط: من الفعل الثلاثي قسط، بينما كلمة مقسط: من الفعل الرباعي أقسط، فكأن الهمزة في «أقْسَط» للسَّلْب، كما يقال: شَكا إليه فأشْكاه، فالهمزة جعلت بين الفعلين فرقاً كبيراً في المعنى، فرق تضاد.

هذه تأملات في كتاب الله عز وجل، أردتُّ أن أوضح من ورائها بعض ما ينطوي عليه هذا الكتاب المعجز من روعة البيان، والذي قصدت إليه هو أن أنال رشفة من بحر هذا البيان الإلهي، أمتع بذلك الخاطر والنفس، وأسعد الفكر والخيال، وحسبي، وحسب القارئ أن نقف من وراء ذلك، وقفة المتأمل الخاشع عند شاطئ هذا اليم العظيم، نمتع البصر ونرهف السمع لهذا الذي سجد لبيانه البيان.

حكى الأصمعي قال: سمعت جارية أعرابية تنشد وتقول:

أستغفر الله لذنبي كله قتلتُ إنساناً بغير حله
مثل الغزال ناعماً في دله فانتصف الليل ولم أصله

فقلت: قاتلك الله ما أفصحكِ؟!

فقالت: أَوَيُعَدُّ هذا فصاحة مع قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص:7]، فجمع في آية واحدة بين أمرَيْن: (أَرْضِعِيهِ - وأَلْقِيهِ)، ونهيَيْن: (لَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي)، وخبريْن: (وَأَوْحَيْنَا - فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ)، وبشارتَيْن: (رَادُّوهُ – وَجَاعِلُوهُ)[15].

فكم من حقيقة جاثمة وراء حدود دلالة النطق والكلام، وكم من جمال وجلال يظهر من ثنايا الكلمة الصادقة التي تتناول من المعنى سطحه وأعماقه وسائر صوره وخصائصه.

15- الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، دار الشعب، القاهرة، 1372 هـ، تحقيق: أحمد عبد العليم البردوني: 252/13.

وهذا الوليد بن المغيرة، عدو الإسلام والقرآن -والحق ما شهدت به الأعداء- يقول عن هذا الكتاب المنير لما سمعه من النبي صلى الله عليه وسلم قال لبنى مخزوم: (والله لقد سمعتُ من محمد آنفاً كلاماً ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن، إنّ له لحلاوة، وإنّ عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه يعلو وما يعلى).

لذا أحببت أن يتذوق القارئ الكريم هذا السمو الرائع في كلام الله رب العالمين.

